تفسير سورةُ الأنْبياءِ
من آية (41) إلى آية (50)
اللقاء الرابع

المعنى الإجمالي من آية (30) إلى آية (40):

يقولُ الله تعالى: أولَمْ يعلَمْ هؤلاء الذين كَفَروا أنَّ السَّمَواتِ كانت مُصمَتةً لا تُمطِرُ، والأرضَ مُصمَتةً لا تُنبِتُ، فصَدَعْنا السَّماءَ فأمطَرَت، وشقَقْنا الأرضَ فأنبَتَت، وخلَقْنا من الماءِ كُلَّ شَيءٍ حَيٍّ. أفلا يؤمِنُ هؤلاء الجاحِدونَ فيُصَدِّقوا بما يُشاهِدونَه، ويُقِرُّوا باستِحقاقِ اللهِ وحْدَه للعبادةِ؟

وجعَلْنا في الأرضِ جِبالًا تُثَبِّتُها حتى لا تَضْطَرِبَ، وجعَلْنا فيها طُرُقًا واسِعةً؛ ليهتديَ الخَلقُ إلى السَّيرِ في الأرضِ والتنقُّلِ في البلدانِ؛ لتحصيلِ مَعايِشِهم، وليهتدوا إلى دلائلِ وحدانيَّةِ خالِقِهم وقدرتِه، وجعَلْنا السَّماءَ سَقفًا محفوظًا مِن السقوطِ عليهم، ومحفوظًا من الشَّياطينِ. والكُفَّارُ عن الاعتبارِ بآياتِ السَّماءِ غافِلونَ لاهونَ عن التَّفكُّرِ فيها.

واللهُ تعالى هو الذي خلق اللَّيلَ والنَّهارَ والشَّمسَ والقَمَرَ، ولكلٍّ منها فلَكٌ يجري فيه ويَسبَحُ.

يُبيِّنُ الله تعالى أنَّ مصيرَ جميعِ البشرِ إلى الموتِ، فيَقولُ تعالى: وما جَعَلْنا لبشَرٍ مِن قَبلِك -يا محمَّدُ- دوامَ البَقاءِ في الدُّنيا، أفإنْ مِتَّ فهم يُخَلَّدونَ فيها؟! كلَّا، لا يكونُ هذا. كلُّ نَفسٍ ذائِقةُ الموتِ لا محالةَ، ونختَبِرُكم -أيُّها النَّاسُ- بالشِّدَّةِ والمِحَنِ تارةً، وبالرَّخاءِ والنِّعَمِ تارةً أخرى؛ فِتنةً لكم، ثمَّ إلينا تُرجَعونَ للحِسابِ والجَزاءِ.

ثمَّ يذكرُ الله سبحانَه جانبًا مِن سفاهاتِ الكفار تجاهَ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، فيقولُ: وإذا رآك الكُفَّارُ -يا محمَّدُ- يَستَهزِئونَ بك، ويقولونَ لائمين إيَّاك؛ لكُفرِك بآلهتِهم: أهذا الذي يَسُبُّ آلهَتَكم؟ وكفروا بذِكرِ الرَّحمنِ، فهم أحقُّ بالاستِنكارِ واللَّومِ!

ثمَّ بيَّن اللهُ تعالى ما جُبِل عليه الإنسانُ مِن تسرُّعٍ، فقال: خُلِق الإنسانُ عَجولًا، سأُريكم -أيُّها المستَعجِلونَ بالعذابِ- آياتِ عَذابي وانتِقامي، فلا تَستَعجِلوا ربَّكم بالعَذابِ.

ويقولُ هؤلاء الكُفَّارُ مُستعجلينَ العَذابَ مُستَهزئينَ: متى يأتينا عَذابُ اللهِ -يا محمَّدُ- إنْ كنتَ أنت ومَنِ اتَّبعَك مِنَ الصَّادقينَ؟ لو يَعلَمُ هؤلاء الكُفَّارُ ما يُلاقونَه مِن العَذابِ عندما لا يَستَطيعونَ أن يَدفَعوا عن وُجوهِهم وظُهورِهم النَّارَ؛ لَمَا استعجَلوا العذابَ. ولا ناصِرَ لهم يدفَعُ عنهم عَذابَ اللهِ، بل تأتيهم النَّارُ فَجأةً، فيتحيَّرونَ عند ذلك، ويخافونَ خَوفًا عظيمًا، ولا يَستطيعونَ دَفعَ النَّارِ عن أنفُسِهم، ولا يُمهَلونَ لاستدراكِ تَوبةٍ واعتذارٍ. الدرر السنية

﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿41﴾

مناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال ابن حيان: لَمَّا تقَدَّمَ قَولُ الله تعالى: إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا؛ سَلَّاه تعالى بأنَّ مَن تقَدَّمَه مِن الرُّسُلِ وقَعَ مِن أُمَمِهم الاستهزاءُ بهم، وأنَّ ثَمَرةَ استِهزائِهم جَنَوها هلاكًا وعِقابًا في الدُّنيا والآخرةِ، فكذلك حالُ هؤلاء المستَهزِئينَ

(وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ) أي: ولقد استهزأَ كُفَّارُ الأُمَمِ الماضيةِ برُسُلِهم الذين أرسَلْناهم مِن قَبلِك -يا مُحَمَّدُ- فاصبِرْ على استِهزاءِ الكافرينَ كما صبَرَ عليه غَيرُك مِن الرُّسُلِ. موسوعة التفسير

كما قال عزَّ وجلَّ: (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ) [الأحقاف: 35].

(فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) أي: فنزلَ وأحاط بالكافِرينَ الذين سَخِروا مِنَ الرُّسُلِ العذابُ الذي كانوا يَستَهزِئونَ به في الدُّنيا، ويُكَذِّبونَ بوُقوعِه. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا) [الأنعام: 34].

﴿قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ ﴿42﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال ابن عاشور: أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا سَلَّى الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على استهزاءِ الكافرينَ بالوعيدِ، أمَرَ أن يُذَكِّرَهم بأنَّ غُرورَهم بالإمهالِ مِن قِبَلِ اللهِ رَحمةٌ منه بهم، كشأنِه في الرَّحمةِ بمَخلوقاتِه، بأنَّهم إذا نزَلَ بهم عذابُه لا يَجِدونَ حافِظًا لهم مِنَ العذابِ غَيْرَه، ولا تَمنَعُهم منه آلهتُهم.

(قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ) أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لكُفَّارِ قَومِك: مَن يَحرُسُكم ويَحفَظُكم باللَّيلِ والنَّهارِ مِن الرَّحمنِ. موسوعة التفسير

استفهامُ تَقريعٍ وتَبْكيتٍ وتَوبيخٍ، أي: لا يَكْلَؤُهم منه أحدٌ؛ فكيف تَجْهَلون ذلك؟! تَنبيهًا لهم إذا نَسُوا نِعَمَه. الدرر السنية

وذِكْرُ اللَّيلِ والنَّهارِ لاستيعابِ الأزمنةِ؛ كأنَّه قيل: مَن يَكْلَؤُكم في جَميعِ الأوقاتِ؟ وقيل: إنما ذُكِر اللَّيلُ والنَّهارُ؛ لأنَّ لكُلِّ واحدٍ مِن الوَقتَينِ آفاتٍ تختَصُّ به، وتَقديمُ اللَّيلِ؛ لِمَا أنَّ الدَّواهِيَ أكثَرُ فيه وُقوعًا، وأشدُّ وَقْعًا. الدرر السنية

وفي لَفْظِ الرَّحْمَنِ تَنبيهٌ على أنْ لا كالِئَ غيرُ رَحمتِه العامَّةِ. وقيل: خَصَّ هاهنا اسمَ (الرَّحمنِ) بالذِّكرِ؛ تلقينًا للجَوابِ، حتى يقولَ العاقِلُ: أنت الكالئُ يا إلهَنا لكلِّ الخلائقِ برَحمتِك.

ينبغي على العبد أن يجتهد في طاعة الله عز وجل في الرخاء، حتى إذا وقع في الشدة عرفه الله عز وجل بقبول دعائه، قال-ﷺ-:"احفظِ اللهَ يَحفظْكَ احفظِ اللهَ تَجِدْهُ أمامَكَ تَعرفْ إلى اللهِ في الرخاءِ يعرفْكَ في الشدةِ" أخرجه الترمذي

الله عز وجل يحرس الناس بالليل والنهار: ﴿قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ [الأنبياء: 42] من يحفظكم من دون الله عز وجل؟ وكل الله عز وجل ملائكة يحفظون العبد من بين يديه ومن خلفه، كما قال عز وجل: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾[الرعد: 11].

وقال الضحاك بن قيس: "اذكروا الله في الرَّخاء، يذكركُم في الشِّدَّة، وإنَّ يونس – عليه السلام – كان يذكُرُ الله تعالى، فلمَّا وقعَ في بطن الحوت، قال الله – عز وجل –: (فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)، وإنَّ فرعون كان طاغياً ناسياً لذكر الله، فلما أدركه الغرق، قَالَ ءَامَنتُ، فقال الله تعالى: (آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ).

وقد فر عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه يوم فتح مكة فركب البحر للحبشة، فلعب بهم الموج، فقال ربان السفينة: "أيها الناس! أخلصوا الدعاء لله، فلن ينجيكم من الغرق إلا هو"، فقال رضي الله عنه: "إن كان لا ينجيني في الشدة إلا هو، فلا ينجيني في الرخاء إلا هو، فلما نجو رجع وأسلم".

إن العبدَ إذا اتَّقى الله، وحَفِظَ حدودَه، وراعى حقوقه في حال رخائه، فقد تعرَّف بذلك إلى الله، وصار بينه وبينَ ربه معرفةٌ خاصة، فعرفه ربُه في الشدَّة، ورعى له تَعَرُّفَهُ إليه في الرَّخاء، فنجَّاه من الشدائد بهذه المعرفة، وهذه معرفة خاصة تقتضي قربَ العبدِ من ربِّه، ومحبته له، وإجابته لدعائه.

حفظ الله لعباده الصالحين تمتد إلى جوانب شتى، وله صور كثيرة متعددة؛ ولكن أعظم هذه الصور على الإطلاق: هي حفظ الله –تعالى– للعبد في دينه وصلاحه واستقامته، هذا النوع هو أعظم أنواع الحفظ وأفضلها وأهمها وأعلاها على الإطلاق، تثبيته له في الحياة الدنيا والآخرة، حفظه له من الشبهات والشهوات، وتبصيره بالحق والباطل، حفظ عقله وصحته وقوته، حفظه لماله وأولاده وإصلاح ذريته؛ حفظه له من شرور الجن وشر كل ذي شر.

(بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ) أي: بل الكُفَّارُ مُعرِضونَ عن ذكرِ ربِّهم؛ جهلًا منهم، وسفهًا.

موسوعة التفسير

قولُه: بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ فيه إضرابٌ بـ (بَلْ)، وهو ارتقاءٌ مِن التَّقريعِ المجْعولِ للإصلاحِ إلى التَّأْييسِ مِن صَلاحِهم بأنَّهم عن ذِكْرِ ربِّهم مُعرِضونَ. وفي تَعليقِ الإعراضِ بذِكْرِه تعالى، وإيرادِ اسمِ الرَّبِّ المضافِ إلى ضَميرِهم المنبِئِ عن كَونِهم تحتَ مَلكوتِه وتَدبيرِه وتَربيتِه تعالى: دَلالةٌ على كَونِهم في الغايةِ القاصيةِ مِنَ الضَّلالةِ والغَيِّ. الدرر السنية

قال ابن جرير: (بل هم عن ذكرِ مواعظِ ربِّهم، وحُججِه التي احتجَّ بها عليهم معرضونَ، لا يتدبَّرونَ ذلك، فلا يعتبرونَ به؛ جهلًا منهم وسفهًا).

وقال ابن كثير: (لا يَعترفونَ بنِعَمِه عليهم، وإحسانِه إليهم، بل يُعرِضونَ عن آياتِه وآلائِه).

﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾ ﴿43﴾

(أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا) أي: ألهؤلاءِ الكُفَّارِ آلِهَةٌ غَيرُنا تَحفَظُهم مِن عَذابِنا إن أنزَلْناه بهم. موسوعة التفسير

(لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ) أي: لا تَقدِرُ آلهَتُهم المزعومةُ أن تَنصُرَ أنفُسَها لِضَعفِها، فكيف تنصُرُ عابديها، وتمنَعُهم مِن عذابِنا. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ) [الأعراف: 191، 192].

(وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ) أي: وليس لتلكَ الآلهةِ مُجيرٌ يُجيرُهم مِنَّا. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ * لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ) [الأنبياء: 98، 99].

وقال سُبحانَه: (احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ * وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ * بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ) [الصافات: 22-26].

﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ ﴿44﴾

(بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ) أي: ولكنَّ الذي أوجبَ استِمرارَهم على كُفرِهم وشِركِهم هو أنَّنا متَّعْنا مُشركي قُرَيشٍ وآباءَهم مِن قَبلِهم بالنِّعَمِ، وأطَلْنا أعمارَهم، فظَنُّوا أنَّها لا تَزولُ عنهم، فقَسَت قلوبُهم، واغتَرُّوا بإمهالِ اللهِ لهم، وأعرَضوا عن تدبُّرِ حُجَجِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ، فحمَلَهم ذلك على الطُّغيانِ، والاستِمرارِ على باطِلِهم. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ) [آل عمران: 178].

وقال سُبحانَه: (وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ) [الأعراف: 182، 183].

فهذه سنة الاستدراج: هو الأخذ بالتدرج، فكلما أذنب العبد زاده الله من النعم، وأنساه التوبة، فيدنيه من العذاب قليلاً قليلاً، ثم يصبّه عليه صبًّا.

لهذا لا ينبغي أن نغتر بما أوتي الكفار من نعم في الدنيا؛ لأن الله يستدرجهم ويملي لهم، قال تعالى: (أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ) [المؤمنون: 55- 56].

فالاستدراج لا يكون للكفار فقط، وإنما يقع على الكافر والمسلم على حد سواء، فقد جاء عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ –رضي الله عنه– عَنِ النَّبِيِّ –صلى الله عليه وسلم– قَالَ: "إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنْ

الدُّنْيَا عَلَى مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ، فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ، ثُمَّ تَلا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم-: (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ) [الأنعام: 44] (رواه أحمد).

فإذا رأيت الله -تعالى- يوسّع على إنسان وهو ظالم، ومع ذلك تزداد رتبته، وتزداد منزلته، وتزداد ثرواته وخيراته، فلا تظن أن ذلك لكرامته على الله، خصوصًا إذا كان يزدادُ في الوقت ذاته طغيانًا ومعصية، وإنما ذلك من باب الاستدراج... وعلى مستوى الأمم؛ فإن الله -تعالى- قد يفتح على أمة من النعم الشيء الكثير، فإذا تنكبت عن شرع الله، زادها الله غنى، وفتح لها من خزائن الأرض، فهي تزداد بُعدًا عن الله، والله يفتح لها أبواب كل شيء استدراجًا لها حتى ينزل عليها عقوبته بغتة.

وأما إذا رأيت الله عجّل عقوبة عبده في الدنيا لذنب أصابه، فاعلم بأن الله أراد بذلك العبد خيرًا؛ لأنه نال جزاءه في الدنيا، فقد جاء عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُغَفَّلٍ -رضي الله عنه- أَنَّ رَجُلاً لَقِيَ امْرَأَةً كَانَتْ بَغِيًّا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَجَعَلَ يُلاعِبُهَا حَتَّى بَسَطَ يَدَهُ إِلَيْهَا، فَقَالَتْ الْمَرْأَةُ: "مَهْ! فَإِنَّ اللَّهَ -عز وجل- قَدْ ذَهَبَ بِالْجَاهِلِيَّةِ وَجَاءَنَا بِالإِسْلامِ، فَوَلَّى الرَّجُلُ فَأَصَابَ وَجْهَهُ الْحَائِطُ فَشَجَّهُ ثُمَّ أَتَى النَّبِيَّ -صلى الله عليه وسلم- فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ: "أَنْتَ عَبْدٌ أَرَادَ اللَّهُ بِكَ خَيْرًا، إِذَا أَرَادَ اللَّهُ -عز وجل- بِعَبْدٍ خَيْرًا، عَجَّلَ لَهُ عُقُوبَةَ ذَنْبِهِ، وَإِذَا أَرَادَ بِعَبْدٍ شَرًّا، أَمْسَكَ عَلَيْهِ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُوَفَّى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ عَيْرٌ". وعير اسم جبل في المدينة. (رواه أحمد وابن حبان).

ولا يعني هذا أن تتمنى أن يعجل الله لك العقوبة في الدنيا كي لا تُستدرج؛ لأن المسلم مطالبٌ أن يسأل الله العافية ولا يتمنى البلاء ولا العقوبة، فقد روى أَنَسُ بن مالك -رضي الله عنه- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- عَادَ رَجُلاً مِنْ الْمُسْلِمِينَ قَدْ خَفَتَ فَصَارَ مِثْلَ الْفَرْخِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-: "هَلْ كُنْتَ تَدْعُو بِشَيْءٍ أَوْ تَسْأَلُهُ إِيَّاهُ"؟ قَالَ: نَعَمْ، كُنْتُ أَقُولُ: اللَّهُمَّ مَا كُنْتَ مُعَاقِبِي بِهِ فِي الآخِرَةِ فَعَجِّلْهُ لِي فِي الدُّنْيَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-: "سُبْحَانَ اللَّهِ لا تُطِيقُهُ، أَوْ لا تَسْتَطِيعُهُ، أَفَلا قُلْتَ: اللَّهُمَّ آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ"؟ قَالَ فَدَعَا اللَّهَ لَهُ فَشَفَاهُ. (رواه مسلم). أسأل الله -تعالى- أن يعصمنا من الاستدراج، ويوقظنا من غفلتنا، ويوفقنا لصالح القول والعمل.

(أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا) أي: أوَلم يرَ الكُفَّارُ أنَّا ننصُرُ المسلِمينَ، ونفتَحُ لهم ديارَ المشرِكينَ أرضًا بعدَ أرضٍ، فنَنقُصُ دارَ الكُفَّارِ، ونَزيدُ في دارِ الإسلامِ؟ أفلا يعتَبِرونَ بذلك فيخافونَ ظُهورَهم على أرضِهم، وقَهرِهم إيَّاهم. موسوعة التفسير

قال ابن عاشور: أَفَلَا يَرَوْنَ استفهامًا تَعجُّبيًّا مِن عدَمِ اهتدائِهم إلى أماراتِ اقترانِ الوعْدِ بالموعودِ، استِدلالًا على قُرْبِه بحُصولِ أماراتِه.

وأسنَدَ سُبحانه الضَّميرَ إلى نفْسِه نَأْتِي؛ تَعظيمًا للمُسلِمين الَّذين أجْرَى على أيديهم الانتصارَ العظيمَ، وافتتاحَ البلادِ والأمصارِ؛ فأصْلُه: تأْتي جُيوشُ المسلِمين، ولكنَّه أسنَدَ الإتيانَ إلى نفْسِه؛ تَنويهًا بقدْرِ المجاهِدين، وتَعظيمًا لِما أتَوا به من جلائلِ الأعمالِ، وناهِيكَ بمَن يَعمَلُ عمَلًا يَنسِبُه اللهُ إلى نفْسِه. الدرر السنية

(أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ) أي: أفكُفَّارُ مكَّةَ هم المنتَصِرونَ على النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وأتباعِه المؤمِنينَ؟! بل المشرِكونَ هم المغلوبونَ الأخسَرونَ الأذَلُّونَ. موسوعة التفسير

والاستفهامُ إنكاريٌّ، أي: فكيف يَحْسَبون أنَّهم غَلَبوا المسلِمين، وفيه تَقريعٌ وتوبيخٌ؛ حيث لم يَعْتَبِروا بما يَجْري عليهم. الدرر السنية

كما قال تعالى: (أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ * سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ) [القمر: 44، 45].

﴿قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ﴾ ﴿45﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال الرازي: لَمَّا كَرَّر في القُرآنِ الأدِلَّةَ، وبالَغَ في التَّنبيهِ عليها على ما تقَدَّمَ؛ أتبَعَه بقَولِه: قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ أي: بالقُرآنِ الذي هو كلامُ رَبِّكم؛ فلا تظُنُّوا أنَّ ذلك مِن قِبَلي، بل اللهُ آتيكم به، وأمَرَني بإنذارِكم.

(قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ) أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: إنَّما أُخَوِّفُكم عذابَ اللهِ بالقُرآنِ الذي يُنزِلُه اللهُ علَيَّ، ولا أُحَذِّرُكم مِن قِبَلِ نَفسي. موسوعة التفسير

والإنذار: إخبار فيه تخويف، كما أن التبشير إخبار فيه سرور.

كما قال تعالى: (وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ) [النمل: 92].

وقال سُبحانَه: (فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ) [ق: 45].

(وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ) أي: ولا يُصغي الكُفَّارُ إلى القُرآنِ، كأنَّهم صُمٌّ لا ينتَفِعونَ به حين يُخَوَّفونَ بآياتِه. موسوعة التفسير

قال السعدي: أي: الأصمُّ لا يَسمَعُ صَوتًا؛ لأنَّ سَمْعَه قد فسَدَ وتعَطَّل، وشَرْطُ السَّماعِ معَ الصَّوتِ أن يُوجَدَ محَلٌّ قابِلٌ لذلك، كذلك الوَحيُ سَبَبٌ لحياةِ القُلوبِ والأرواحِ، وللفِقهِ عن اللهِ، ولكِنْ إذا كان القَلبُ غَيرَ قابِلٍ لسَماعِ الهُدى، كان بالنِّسبةِ للهُدى والإيمانِ بمَنزِلةِ الأصَمِّ بالنِّسبةِ إلى الأصواتِ.

كما قال تعالى: (وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) [البقرة: 171].

وقال سُبحانَه: (مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ) [هود: 20].

وقال عزَّ وجلَّ: (إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ * وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ) [النمل: 80، 81].

✉دور الرسل وكذا الربانيين من أتباعهم هو الإنذار والبشارة والدعوة إلى الله، أما الهداية وإدخال الإيمان في القلوب فهذه بيد الله وحده، فالرسل والدعاة ليس باستطاعتهم إسماع من يصر على الإعراض أو فتح قلب من أغلق قلبه عن مجرد الإنصاف وإعطاء فرصة التفكير لنفسه في مسألة الإيمان والكفر، والتقوى والفجور، والمعصية والطاعة، ولو مس هؤلاء ولو اليسير من حر جهنم لعلموا وصرخوا بأعلى أصواتهم ولكنه الاختبار والابتلاء في الدار الدنيا فمعاينة العذاب الحقيقي والنعيم الحقيقي لن يكون إلا في الآخرة.

﴿وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ﴿46﴾

(وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ) أي: ولَئِنْ أصاب الكافرينَ المستَعجِلينَ بالعذابِ أقَلُّ شَيءٍ مِن عذابِ رَبِّك -يا مُحَمَّدُ- ليقولُنَّ نادمينَ مُتحَسِّرينَ: يا ويلَنا إنَّا كُنَّا ظالِمينَ لأنفُسِنا بعِبادتِنا غيرَ اللهِ. موسوعة التفسير

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ ﴿47﴾

(وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ) أي: ونُقيمُ الموازينَ العادِلةَ في يومِ القيامةِ؛ لِوَزنِ أعمالِ العِبادِ عند حِسابِهم. موسوعة التفسير

روى الحاكمُ عَنْ سَلْمَانَ الفَارِسِي عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: ((يُوضَعُ الْمِيزَانُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلَوْ وُزِنَ فِيهِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ لَوَسِعَتْ، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: يَا رَبِّ لِمَنْ يَزِنُ هَذَا؟ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: لِمَنْ شِئْتُ مِنْ خَلْقِي، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: سُبْحَانَكَ مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ)). السلسلة الصحيحة

قال الشنقيطي: (اختلفوا في كيفيَّةِ هذا الوَزنِ على ثلاثةِ أقوالٍ لا يُكَذِّبُ بَعضُها بَعضًا، وقال بعضُ العُلَماءِ: لا مانِعَ مِن أن يقعَ جميعُها، فذهب أكثَرُ المفَسِّرين إلى أنَّ الموزونَ هو صحائِفُ الأعمالِ؛ لأنَّ كلَّ إنسانٍ له كتابٌ وصحائِفُ فيها عَمَلُه... وذهبت جماعةٌ من العُلماءِ، ورواه غيرُ واحدٍ عن ابنِ عبَّاسٍ: أنَّ الموزونَ نفسُ الأعمالِ، وأنَّ اللهَ يُحَوِّلُ الأعمالَ الحَسَنةَ إلى أجرامٍ حَسَنةٍ مُضيئةٍ نَيِّرةٍ... وقال بعضُ أهلِ العِلمِ: إنَّ ما يُوزَنُ أصحابُ الأعمالِ).

كما قال تعالى: (وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ) [الأعراف: 8، 9].

(فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا) أي: فلا يَظلِمُ اللهُ نفسًا يومَ القيامةِ بالنَّقصِ مِن حَسَناتِها، أو بمُعاقَبتِها بغيرِ ذَنبِها، أو بالزِّيادةِ في سَيِّئاتِها. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا) [النساء: 40].

(وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا) أي: وإن كان الَّذي للعبدِ مِن عملِ الحسناتِ، أو عليه مِن السَّيِّئاتِ وَزنَ حَبَّةٍ مِن خَردلٍ، جِئْنا بها لِتُوزنَ في الميزانِ. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا) [الكهف: 49].

وقال سُبحانَه: (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) [الزلزلة: 7، 8].

(وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ) أي: وكفَى بنا عالِمينَ بأعمالِ العِبادِ، حافِظينَ لها، مُثبِتينَ لها في الكِتابِ، عالِمينَ بمقاديرِها ومقاديرِ ثوابِها وعِقابِها واستِحقاقِها، مُوصِلينَ للعامِلينَ جَزاءَها، ولن نَظلِمَهم شيئًا؛ فليس في الحِسابِ أحدٌ مِثلُنا. موسوعة التفسير

✉قولُه: وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ فيه توعُّدٌ، وهو إشارةٌ إلى ضَبْطِ أعمالِهم مِن الحسابِ، وهو العَدُّ والإحصاءُ. وقيل: هو كِنايةٌ عن المجازاةِ.

قال ابنُ عاشور: (التقدير: وكفى النَّاسَ نحنُ في حالِ حِسابِهم. ومعنى: كفاهم نحن حاسِبينَ: أنَّهم لا يتطلَّعونَ إلى حاسِبٍ آخَرَ يَعدِلُ مِثلَنا. وهذا تأمينٌ للنَّاسِ مِن أن يُجازَى أحَدٌ منهم بما لا يَستَحِقُّه، وفي ذلك تحذيرٌ مِن العذابِ، وترغيبٌ في الثوابِ).

كما قال تعالى: (إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ) [الغاشية: 25- 26].

✉قد يتساءل البعض: أليس الله تعالى يعلمُ مقاديرَ أعمال العباد، فما الحكمة في وزنها؟ إن وَزْنَ أعمال العباد فيه حِكَمٌ كثيرةٌ، منها:

(1) إظهار العدل، وأن الله عز وجل لا يظلم عباده.

(2) امتحان العباد بالإيمان بذلك في الدنيا، وإقامة الحُجَّة عليهم يوم القيامة.

(3) تعريف العباد ما لهم من خير، وشرٍّ وحسنة وسيئة.

قال الخازن: وفائدة تعريف العباد بمقادير أعمالهم أن العباد لو دخلوا الجنة قبل وزن أعمالهم ربما ظَنَّ المطيعُ أنَّه نال الدرجات في الجنة عن استحقاق، وظنَّ العاصي أن عذابَه أكبرُ من ذُنُوبه، فتُوزن أعمالهم؛ ليقفوا على مقادير أجرها، فيعلم الصالح أن ما ناله من الدَّرَجات بفضل الله، لا بمجرد عمله، ويتيقَّن العاصي أن ما ناله مِن العذاب هو نتيجة المعاصي التي ارتكبها؛ (تفسير الخازن، جـ 2، صـ 182).

صفة ميزان الأعمال: دَلَّتْ السُّنَّةُ عَلى أَنَّ مِيزَانَ الْأَعْمَالِ لَهُ كِفَّتَانِ حِسِّيَّتَانِ مُشَاهَدَتَانِ؛ (شرح العقيدة الطحاوية؛ لابن أبي العز الحنفي، جـ 1، صـ 417).

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال رسولُ اللهِ -ﷺ-: "إنَّ اللهَ سيُخَلِّصُ رَجُلًا مِن أُمَّتي على رُؤوسِ الخلائِقِ يومَ القيامةِ، فيَنشُرُ عليه تِسعةً وتِسعينَ سِجِلًّا، كلُّ سِجِلٍّ مِثلُ مَدِّ البَصرِ، ثمَّ يقولُ: أتُنكِرُ مِن هذا شيئًا؟ أظلَمَكَ كَتَبَتي الحافِظونَ؟ فيقولُ: لا يا رَبِّ، فيقولُ: أفلَكَ عُذرٌ؟ فيقولُ: لا يا رَبِّ، فيقولُ: بلى، إنَّ لك عندنا حَسَنةً، فإنَّه لا ظُلمَ عليك اليومَ، فتُخرَجُ بطاقةٌ فيها:

أشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأشهَدُ أنَّ مُحمَّدًا عَبدُه ورَسولُه، فيقولُ: احضُرْ وَزْنَك، فيقولُ: يا رَبِّ، ما هذه البِطاقةُ مع هذه السِّجِلَّات؟! فقال: إنَّك لا تُظلَمُ، فتُوضَعُ السِّجِلاتُ في كفَّةٍ، والبِطاقةُ في كفَّةٍ، فطاشت السِّجِلاتُ، وثَقُلَت البطاقةُ؛ فلا يَثقُلُ مع اسمِ اللهِ شَيءٌ" (السلسلة الصحيحة)

قال رسولُ اللهِ -ﷺ-: "توضَعُ الموازينُ يومَ القيامةِ، فيُؤتى بالرَّجلِ، فيوضَعُ في كفَّةٍ، فيوضَعُ ما أُحْصيَ عليهِ، فتمايلَ بِهِ الميزانُ، قالَ: فيبعثُ بِهِ إلى النَّارِ قال فإذا أُدْبِرَ بِهِ إذا صائحٌ يصيحُ مِن عندِ الرَّحمنِ، يقولُ: لا تَعجلوا، لا تَعجلوا، فإنَّهُ قد بقيَ لَهُ، فيؤتَى ببطاقةٍ فيها: لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ، فتوضَعُ معَ الرَّجلِ في كفَّةٍ، حتَّى يميلَ بِهِ الميزانُ". مسند أحمد

وقت وزن الأعمال: وزنُ أعمال العباد يكون بعد الانتهاء مِن محاسبتهم، وهو تكملةٌ لها.

قَالَ الإمامُ الْقُرْطُبِيُّ رحمه الله: قَالَ الْعُلَمَاءُ: إِذَا انْقَضَى الْحِسَابُ كَانَ بَعْدَهُ وَزْنُ الْأَعْمَالِ؛ لِأَنَّ الْوَزْنَ لِلْجَزَاءِ، فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ بَعْدَ الْمُحَاسَبَةِ، فَإِنَّ الْمُحَاسَبَةَ لِتَقْرِيرِ الْأَعْمَالِ، وَالْوَزْنَ لِإِظْهَارِ مَقَادِيرِهَا لِيَكُونَ الْجَزَاءُ بحسبها؛ (شرح العقيدة الطحاوية؛ لابن أبي العز الحنفي، جـ1، صـ 417).

إن قيل: قَولُ الله تعالى: (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا)، ظاهرُه يناقض قولَه تعالى في الكفارِ: (فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا) [الكهف: ١٠٥]؟

والجوابُ على ذلك مِن وجهينِ:

الأوَّل: أنَّه ليس هذا على أن لا توزنَ أعمالُ الكفارِ، بل تُوزنُ لكنَّ أعمالَهم شَائِلَةٌ، وموازينَهم خفافٌ، قد نَصَّ الله تعالَى على ذلك فقال: (وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ) إلى قولِه: (فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ)، فأخبَرَ عزَّ وجلَّ أنَّ هؤلاءِ المكذِّبين بآياتِه خفَّت موازينُهم، والمكذِّبون بآيَاتِ الله عزَّ وَجلَّ كفارٌ بلا شكٍّ، فمعنَى الآيةِ: لا نُثقِّلُ مَوازينَهم يومَ القيامةِ؛ لأنَّه ليس لهم حَسَناتٌ.

الثاني: أنَّ معنى الآيةِ: لا يُعتَدُّ بهم، ولا يكونُ لهم عندَ الله قَدْرٌ ومَنزلةٌ، فلا يُكرِمُهم ولا يُعظِّمُهم.

فلنعد للميزان أعمالاً صالحة، ولنكثر من عمل الصالحات التي تبيض صحائف أعمالنا، ولنكفَّ عن المعاصي والسيئات، فإن موازين القيامة تثقل بالطاعات فيسعد صاحبها، وتخف بالأعمال السيئة فيهلك صاحبها، وذلك هو الخسران المبين، تقول أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها وأرضاها-: أَنَّهَا ذَكَرَتِ النَّارَ فَبَكَتْ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ-: " مَا يُبْكِيكِ " . قَالَتْ : ذَكَرْتُ النَّارَ فَبَكَيْتُ، فَهَلْ تَذْكُرُونَ أَهْلِيكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : " أَمَّا فِي ثَلاَثَةِ مَوَاطِنَ فَلاَ يَذْكُرُ أَحَدٌ أَحَدًا : عِنْدَ الْمِيزَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَيَخِفُّ مِيزَانُهُ أَوْ يَثْقُلُ، وَعِنْدَ الْكِتَابِ حِينَ يُقَالُ { هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ } حَتَّى يَعْلَمَ أَيْنَ يَقَعُ كِتَابُهُ أَفِي يَمِينِهِ أَمْ فِي شِمَالِهِ أَمْ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ، وَعِنْدَ الصِّرَاطِ إِذَا وُضِعَ بَيْنَ ظَهْرَىْ جَهَنَّمَ " .رواه أبو داود

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿48﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قبلَها: قال الرازي: أنَّ الله سُبحانَه لَمَّا تكَلَّم في دلائِلِ التوحيدِ والنبُوَّةِ والمعادِ؛ شرع في قَصَصِ الأنبياءِ عليهم السلامُ؛ تسليةً للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ فيما ينالُه مِن قَومِه، وتقويةً لقَلبِه على أداءِ الرِّسالةِ، والصَّبرِ على كُلِّ عارضٍ دونَها.

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ) أي: ولقد آتَينا موسى وهارونَ ما يُفرَقُ به بينَ الحَقِّ والباطِلِ. موسوعة التفسير

قال ابن القيم: وقَولُه تعالى: وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ فيه ثلاثةُ أقوالٍ: أحدُها: التوراةُ التي فَرَق بها بين الحلالِ والحرام. والثاني: البرهانُ الذي فَرَق به بينَ حقِّ موسى وباطِلِ فرعونَ. والثالث: النَّصرُ والنَّجاةُ لموسى، وإهلاكُ فرعونَ.

قال تعالى: (وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ * وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ * وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ * وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ) [الصافات: 114 - 117].

وقال سبحانه: (وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) [البقرة: 53].

وقال عزَّ وجلَّ: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ) [غافر: 23].

(وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ) أي: وآتينا موسى وهارونَ التَّوراةَ نورًا في القَلبِ، مُضيئةً طَريقَ الحَقِّ، مُبَصِّرةً لِمن اتَّبَعَها أحكامَ دينِهم، وهي تذكيرٌ ومَوعِظةٌ للمُتَّقينَ الذين يمتَثِلونَ أوامِرَ اللهِ، ويجتَنِبونَ نواهيَه. موسوعة التفسير

قال السَّعدي: (وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ يتذكَّرونَ به ما ينفَعُهم وما يَضُرُّهم، ويُتذَكَّرُ به الخَيرُ والشَّرُّ).

وقال ابنُ عاشور: (لأنَّه يُذَكِّرُهم بما يَجهَلونَ، وبما يَذهَلونَ عنه مِمَّا عَلِموه، ويجَدِّدُ في نفوسِهم مُراقبةَ رَبِّهم).

﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ ﴿49﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قبلَها: قال ابن حيان: لَمَّا ذكر اللهُ تعالى التَّقوى؛ ذكَرَ ما أنتجَتْه، وهو: خشيةُ اللهِ، والإشفاقُ مِن عذابِ يَومِ القيامةِ

(الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ) أي: آتيناها التَّوراةَ ضِياءً وذِكرًا للمُتَّقينَ الذين يَخافونَ رَبَّهم في غَيبِهم وخَلَواتِهم حيثُ لا يَطَّلِعُ عليهم أحدٌ مِن النَّاسِ، فيَترُكونَ المحَرَّماتِ، ويقومونَ بالواجِباتِ، مُخلِصينَ لله، خائِفينَ مِن عذابِه. موسوعة التفسير

(وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ) أي: وهم مِن يومِ القيامةِ وأهوالِه خائِفونَ حَذِرونَ. موسوعة التفسير

قال السعدي: (وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ أي: خائفونَ وجِلون؛ لكمالِ معرفتِهم بربِّهم).

قال ابن رجب: خَشيةُ اللَّهِ في الغَيبِ والشَّهادةِ المعنيُّ بها أنَّ العَبدَ يخشى اللَّهَ سرًّا وإعلانًا، وظاهِرًا وباطِنًا، فإنَّ أكثَرَ النَّاسِ يرى أنَّه يخشى اللهَ في العلانيةِ وفي الشَّهادةِ، ولكِنَّ الشَّأنَ في خَشيتِه اللهَ في

الغَيبِ إذا غاب عن أعيُنِ النَّاسِ، وقد مدح اللهُ مَن يخافُه بالغَيبِ؛ قال تعالى: (الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ)، وقال: (مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ) [ق: 33]، وقال تعالى: (لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ) [المائدة: 94]، وقال: (إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ) [الملك: 12].

وأيضًا في قولِه: (وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ) فالخشيةُ مِن اللهِ مُلازِمةٌ لهم، ولكنَّها مِن السَّاعةِ أكثَرُ مُلازَمةً، وأشَدُّ امْتِلاكًا لقُلوبِهم، وأسْرًا لجَوارِحِهم، فيحملهم على تَفادي كلِّ ذنْبٍ؛ خَشيةَ مُواجهتِها بما هم فيه.

ما الفرق بين الخوف والخشية؟ فإن الخوف والخشية لفظان متقاربان، لا مترادفان، وبينهما عموم وخصوص: فالخشية أخصّ من الخوف، وأعلى مقامًا منه؛ لأنها خوف مقرون بمعرفة.

وقد لخص الإمام ابن القيم –رحمه الله– الفرق بينهما في "مدارج السالكين"، فقال: الخوف اضطراب القلب، وحركته من تذكر المخوّف..، وقيل: الخوف هرب القلب من حلول المكروه عند استشعاره، والخشية أخصّ من الخوف؛ فإن الخشية للعلماء بالله، قال الله تعالى: إنما يخشى الله من عباده العلماء (فاطر:28)، فهي خوف مقرون بمعرفة، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأَعْلَمُهُمْ باللَّهِ، وأَشَدُّهُمْ له خَشْيَةً" صحيح البخاري، فالخوف حركة، والخشية انجماع، وانقباض، وسكون.

الفارق الرئيسي بينهما هو العلم وعدمه، أي ان الخشية تكون عن علم بمن الذي يخشى منه والخوف قد يكون حتى مع الجهل بالمخوف –أي الذي يخافه– قال تعالى: (وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ) خير دليل ان الخشية هي خوف بعلم لان أدلك اي اعلمك وارشدك الى الدين بعدها تخشى او تصل لمقام الخشية إذا هي شعور يحدث بعد العلم، وعليه فالخشية أخص وأعلى مرتبة من الخوف لهذا اقرنها الله بالعلماء والعلم.

يراد بالخوف الكف عن المعاصي وتحري الطاعات؛ ولهذا قيل: لا يُعَدُّ خائفاً من لم يكن للذنوب تاركاً، ويؤيد هذا المعنى تفسير ابن عباس –رضي الله عنهما– للخائف بقوله: "الخائف من ركب طاعة الله –تعالى– وترك معصيته".

روى عطاء –رضي الله عنه– أن أبا بكر الصديق –رضي الله عنه– ذكر ذات يوم وفكر في القيامة والموازين والجنة والنار وصفوف الملائكة وطي السماوات ونسف الجبال وتكوير الشمس واندثار النجوم، فقال –رضي الله عنه–: "وَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ خَضِرًا مِنْ هَذِهِ الْخَضِرِ، تَأْتِي عَلَيَّ بَهِيمَةٌ فَتَأْكُلُنِي وأني لم أخلق؛ فَنَزَلَتْ: (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ) [الرحمن:46]".

وها هو عمر الفاروق رضي الله عنه يقول لابنه عبد الله وهو في سكرات الموت: (ويحك ضع خدي على الأرض عساه أن يرحمني، ثم يقول: ويل أمي إن لم يغفر لي، ويل أمي إن لم يغفر لي)، ويأخذ مرة تبنة من الأرض فيقول: (ليتني هذه التبنة، ليتني لم أكن شيئا، ليت أمي لم تلدني، ليتني كنت منسيا).

وهذا عثمان رضي الله عنه كان إذا وقف على القبر يبكي حتى يبل لحيته، وكان يقول: (لو أنني بين الجنة والنار لا أدري إلى أيتهما يؤمر بي، لاخترت أن أكون رمادا قبل أن أعلم إلى أيتهما أصيرُ).

سألت عائشة -رضي الله عنها- رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن قوله تعالى: (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ) [المؤمنون:60]، أهو الرجل يسرق ويزني ويشرب الخمر ومع ذلك يخاف الله -تعالى-؟ فقال -صلى الله عليه وسلم-: "لا، ولكنه الرجل يصوم ويتصدق ويصلي وهو مع ذلك يخاف ألا يتقبل منه".

يقول الحسن البصري -رحمه الله- في شأن هؤلاء: "عملوا والله بالطاعات، واجتهدوا فيها، وخافوا أن ترد عليهم، إن المؤمن جمع إحسانا وخشية، وإن المنافق جمع إساءة وأمنا".

قال ابن القيم رحمه الله: الْخَوْفُ الْمَحْمُودُ الصَّادِقُ: مَا حَالَ بَيْنَ صَاحِبِهِ وَبَيْنَ مَحَارِمِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِذَا تَجَاوَزَ ذَلِكَ خِيفَ مِنْهُ الْيَأْسُ وَالْقُنُوطُ.

فالخوف من الله ليس شكلاً خارجياً يتمثل في صيحةٍ أو تأوه وأنَّات، فقد لا يكون الخائف من يبكي ويمسح عينيه، بل الخائف من يترك ما يخاف أن يُعاقب عليه.

كيف نحصل على الخوف والخشية من الله تعالى:

1. اجلال الله ومعرفة قدره (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) [الزمر:67].

2. الايمان بالله تعالى: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) [الأنفال:2] وجلت اي خافت وخشت.

3. التفكر في خلق الانسان والكون (مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً * أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً) [نوح:13-15] ومعنى ذلك اي مابكم لا تخافون الله الذي خلقكم والى اخر الآيات.

4. وهي الاهم وهو طلب العلم (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) [فاطر:25].

قال ابن القيم رحمه الله: كلما كان العبد بالله أعلم، كان له أخوف، وقال ابن مسعود: "كفى بخشية الله علماً" ونقصان الخوف من الله إنما هو لنقصان معرفة العبد به، فأعرف الناس أخشاهم لله، ومن عرف الله اشتد حياؤه منه وخوفه له وحبه له، وكلما ازداد معرفة ازداد حياءً وخوفاً وحباً.

﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾ ﴿50﴾

قال البقاعي: مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذكَرَ فُرقانَ موسى عليه السَّلامُ، وكان العَرَبُ يُشاهِدونَ إظهارَ اليهودِ للتمَسُّكِ به والمقاتَلةِ على ذلك والاغتِباطِ؛ حَثَّهم على كتابِهم الذي هو أشرَفُ منه، فقال

(وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ) أي: وهذا القرآنُ ذِكرٌ يتذَكَّرُ ويتَّعِظُ به المؤمنونَ، كثيرُ الخيراتِ في الدنيا والآخِرةِ، أنزَلْناه كما أنزَلْنا التوراةَ إلى موسى وهارون ذِكرًا للمُتَّقينَ. موسوعة التفسير

قال ابن عاشور: في قولُه: وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ اسمُ الإشارةِ يُشِيرُ إلى القُرآنِ؛ لأنَّ حُضورَه في الأذهانِ وفي التِّلاوةِ بمَنزِلَةِ حُضورِ ذاتِه. قولُه: أَنْزَلْنَاهُ زادَهُ تَشريفًا بإسنادِ إنزالِه إلى ضَميرِ الجَلالةِ.

وقال ابن عاشور: (وَصْفُ القرآنِ بالمباركِ يعُمُّ نواحيَ الخيرِ كُلَّها؛ لأنَّ البَرَكةَ زيادةُ الخير؛ فالقرآنُ كُلُّه خيرٌ مِن جهة بلاغةِ ألفاظِه وحُسنِها، وسُرعةِ حِفظِه، وسهولةِ تلاوتِه، وهو أيضًا خَيرٌ لِما اشتمَلَ عليه من أفنانِ الكلامِ والحِكمةِ والشريعةِ واللَّطائِفِ البلاغية، وهو في ذلك كلِّه آيةٌ على صِدقِ الذي جاء به؛ لأنَّ البَشَرَ عَجَزوا عن الإتيانِ بمِثلِه، وتحدَّاهم النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بذلك فما استطاعوا، وبذلك اهتَدَت به أممٌ كثيرةٌ في جميعِ الأزمانِ، وانتفَعَ به مَن آمَنوا به، وفريقٌ مِمَّن حُرِموا الإيمانَ، فكان وصفُه بأنَّه مباركٌ وافيًا على وَصفِ كتابِ موسى عليه السَّلامُ بأنَّه فُرقانٌ وضياءٌ).

كما قال تعالى: (وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) [الأنعام: 155].

وقال عزَّ وجلَّ: (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ) [ص: 29].

(أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ) أي: أفأنتم للقُرآنِ مُنكِرونَ نُزولَه من عندِ اللهِ وهو في غايةِ الظُّهورِ؟ وكيف تُنكِرونَ كَونَه مُنَزَّلًا مِن عِندِه سُبحانَه مع اعترافِكم بأنَّ التَّوراةَ مُنَزَّلةٌ مِن عندِه. موسوعة التفسير

قال السعدي: في قول الله تعالى: وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ فوصَفَ القُرآنَ بوَصفَينِ جَليلَينِ:

❶الأوَّلُ: كَونُه ذِكرًا يُتذَكَّرُ به جميعُ المطالِبِ؛ مِن مَعرِفةِ اللهِ بأسمائِه وصِفاتِه وأفعالِه، ومِن صفاتِ الرُّسُلِ والأولياءِ وأحوالِهم، ومِن أحكامِ الشَّرعِ مِن العِباداتِ والمعامَلاتِ وغَيرِها، ومِن أحكامِ الجَزاءِ والجَنَّةِ والنَّارِ، فيُتذَكَّرُ به المسائِلُ والدَّلائِلُ العَقليَّةُ والنَّقليَّةُ، وسمَّاه ذِكرًا؛ لأنَّه يَذكُرُ ما رَكَزَه اللهُ في العُقولِ والفِطَرِ؛ من التَّصديقِ بالأخبارِ الصَّادِقةِ، والأمرِ بالحَسَنِ عَقلًا، والنَّهيِ عن القَبيحِ عَقلًا.

❷والثَّاني: كَونُه مُبَارَكًا وهذا يقتضي كَثرةَ خَيراتِه، ونماءَها وزيادتَها، ولا شَيءَ أعظَمُ بَرَكةً مِن هذا القرآنِ؛ فإنَّ كُلَّ خَيرٍ ونِعمةٍ، وزيادةٍ دينيَّةٍ أو دُنيويَّةٍ أو أُخرويَّةٍ؛ فإنَّها بسَبَبِه وأثَرٌ عن العَمَلِ به، فإذا كان ذِكرًا مُبارَكًا، وجَبَ تَلقِّيه بالقَبولِ والانقيادِ والتَّسليمِ، وشُكرِ اللهِ على هذه المِنحةِ الجَليلةِ، والقيامِ بها، واستِخراجِ بَركتِه بتعَلُّمِ ألفاظِه ومَعانيه.